

الجنود يبدؤون الخدمة

رولا سرحان، فلسطين

صعوبة التحزّر

يصعب التحزّر من الحنين إلى الأشياء الصغيرة،
مثل حنينك لامرأة قبّلتك قبل أن تموت،
أو الوقوف أمام البيت الذي ذاق الخبز والعجين
وعلاً الأذان والموسيقى،
أو التحزّر من اللكنة المميّزة للجار الذي
يعلّمك أن تحشر نفسك في تفاصيله،
أو استمرار الشجار
على خزان ماء فارغ سُرق قبل أن يصل،

وقبل كل شيء صغير في صيغة كبيرة،
يصعبُ التحزّر من خيمة تطارد شعبيها،
ولا تريد أن تنسأهم،

فلم يُحلّفنا أحد بشيء قبل القصف أو بعده.

وظلّوا يسألوننا عن الحنين، والشعب الذي جاء ومعه الحرب،
ويسألوننا عن الجدارة في الموت، وكيفية امتصاص الغبار للحقل،
وعن رجفة برج من عشرين طابقاً، لماذا لا يمكنه الرقص؟
ولماذا لا نريد مسحةً من يد الربّ كي يكون شعبه ملكاً علينا؟
أليس هذا سؤالاً ذاتياً في الأجساد بينما التابوت من عند الله؟
ونحن، لم يُحلّفنا أحد بشيء لا قبل القصف أو بعده،

فعندما خلق الله بلادنا كانت خربة، لكنها كانت جميلة،
 ثم صارت مدينة تلهو على الماضي والآتي، لكنها كانت أيضاً جميلة،
 وعندما دُعي النور نهاراً، والظلمة ليلاً،
 نُسينا، ووطننا ظناً حسناً،
 أن الأرض مستوية،
 ستحملنا مثلما تحمل البشر الآخرين،
 لكننا كنا عالقين في أول سفر التكوين،
 قبل استكمال خلق البشر، نُحمل كذوات الأنفس،
 أحياء لكننا من وحوش الأرض، كأجناسها،
 ومن البهائم، كأجناسها،
 ومن جميع الدابات، كأجناسها،
 ورأى ذلك بشري خُلق كأنه فوق البشر،
 وظلّ يردّد أنه الذي باركه الله وحده،
 ولم يتأسّف مرّة في قلبه،
 لا كيف يتحكّم في الضوء، ولا كيف يُجفّف الماء،
 ولم يابه كيف أفسد طريقنا فوق الأرض،
 وكيف أنه من يد إنسان يُشبهه طلب نفسنا،
 فكانت رخصة سفك الدم،

ولم يُحلفنا أحد بشيء قبل القصف أو بعده،
 لا عن مُدد الأيام فوق الأرض،
 لا عن زرع وحصاد، ولا برد وحرّ، أو نهار وليل،
 كنّا عشباً تدوس عليه العربة،

كنّا عجلة ثلاثية، وعنزة ثلاثية، وكبشاً ثلاثياً،
 وفيينا الحمامة واليمامة،
 فكنا قرايين العهد،

لحمًا حيًّا يؤكّل ودماً تُسقى به الأرض،
أو يُرمى في البحر قبل يوم السبت،
وكانت الأرض من المغرب إلى النهر الكبير،
ولم يسند أحد قلوبنا،

لا قبل القصف أو بعده.
فلم يُحلفنا أحدٌ بشيء،
لا قبل أن كلّم الرّب موسى ولا بعده،
فالنبي ليس منّا، ولم نأت بعجوبة سوى عجائب موتنا!
ومع ذلك، لم يكن موتنا ساحراً، ولم يكن شيقاً، أو شائكاً،
وكان الثعبان العصا يمكنه التهامنا بعد أن نموت،
وكان يمكنه أن يتحوّل إلى قذيفة صاعقة، يمكنها دفننا
تحت ركام أكثر،
ويمكن للعصا القذيفة أن تكون عرّافة الزمن الحديث،
أن تمدّ نفسها حتى لا يبصر أحدٌ أخاه،
ولا يقوم أحد من مكانه،
ولا يتّمّ النزوح طريقه،

ويمكن للعصا أن تكون بنتاً حياً لصور جنثنا على الهواء مباشرة،
والناس تأكل الفطائر، وتشرّب العصير، ويذهبون إلى المحافل المقدّسة،
وأحذيتهم في أرجلهم، ومعاطفهم على أكتافهم، وربطات العنق أمام مكاتبهم،
بينما نقدّم لهم خدمة الترفيه، وأفلاماً سينمائية مرعبة، رخيصة التكاليف.

ولم يُحلفنا أحدٌ بشيء قبل القصف أو بعده.
قدّسنا كل بكر، وكل فاتح رحم، وكل طفل، وكل بيت،

سبعة أيام في الأسبوع، أربعاً وعشرين ساعة، ولم نفض لبناً وعسلاً،
بل أخذتنا الرّعدة،

ومن دخل وحده إلى الموت خرج منه مع كثيرين،
وصعدنا إلى الجبل، ومشينا على الشاطئ، وكانت المدينة خراباً،
وزادوها خراباً،
وصارت لهم مائدة من الوجوه الميَّتة،
والمذبح على امتداد الخارطة،
وثيابهم من جلودنا، وزيت سراجهم من صراخنا،
أما الأقمصة، والمناطق، والقلائس، والسراويل، والعمامات، والصدائر، والطرايبشُ،
هي عظامنا التي تحجَّرت على الرؤوس، والأقدام، والخصور، والصدور،
ولم يحلِّفنا أحد بشيء قبل القصف أو بعده،
ولم يسألنا أحد عن صعوبة التحرُّر من الحنين إلى الأشياء الصغيرة.

وجه العسكري الذي يلمع

عندما خرج من اجتماعه المصغَّر،
لم يكن يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه عنَّا،
صار الكلُّ يخاف أن يقترب منه، بينما يتقرَّبون إليه،
فقد أخبرهم أنه كان في حديثٍ مع الربِّ،
وأن يوم غضبته آتٍ لا محالة على كل من لا يؤازر شعبه.
وجاء الرؤساء، والقادة، والمضادات، والطائرات، وحاملاتها،
وجمَّع العسكري كلَّ جماعة يكلمها، وكلِّما بدأ في كلام مع جماعة منهم،
لم يجعل على وجهه برقاً ليروا كم وجهه يلمع،
ووضع أمامهم كلماته مع الربِّ، وقال لهم:
هذا هو الذي أمر الربُّ أن يُصنع
أما الأيام فدواليب مسنَّنة،
وليس فيها يوم عطلة مقدَّس يرتاح فيه الربُّ من القتل.

فصنع سقفاً من صواريخ، وسبع جبهات مكلّلة بالرصاص،
 ووضع المحرقة في خلفية الاغتسال اليومي من القتل،
 وصنع المعسكر إلى جهة الجنوب، وقواعد إلى جهة الشمال،
 وإلى الشرق صوّب، وإلى الغرب أدار ظهره واستراح.

ودخل المذبح، ورَتَّب ترتيب الرصاص، وبخَّرَه بالغبار،
 وقَرَّب بنُو الكهنة الدم، وكَفَّرُوا بالنار،
 وكان يعصر الأجساد، ويُقَطِّرها، ويستخرج منها رائحة سرور للربِّ،
 ويقبض من الأرواح ملء قبضته، ويضع عليها باروداً وشظايا كي تتقدَّس،
 والأشلاء تتطاير في أحزمة النار، تصير فطائره الملتوتة التي تُوَكَّل،

وكان مساكين المذبح ذبيحة سلامة، يضع يده على رؤوسهم،
 ويذبحهم أمام خيمة الاجتماع الدولي، ويرشُّ دمهم مستديراً حولهم،
 فإذا أخطأت نفس أحدهم سهواً في جميع المناهي،
 كان يُقدِّم المساكين إلى مرمى الرماح من جديد،
 ويغمس إصبغه في دمهم،

تلك فريضة دهرية في أجيالهم،
 ليظلَّ وجه العسكري يلمع،
 كلُّما خرج من حديثه مع الربِّ!

الجنود يبدؤون الخدمة

في اليوم الأول أو المئة،
 لا يهْمُ،
 صعبٌ أن تعرف كيف بدأ يوم أو انتهى،
 ولا تمييز في مواعيد التفاصيل المؤلمة،
 الأيام مسالك متشابهة،

يحدّدها موعد خدمة الجنود،
 وغاية كل جندي من الجنّة،
 وكيف يريد أن يتفنّن ويُتقن قتل جنّة أخرى،
 كي يتصوّر معها،
 أو يحتفل بعيد ميلاد طفلته فيقدّم كعكة من الجسد لها.

في اليوم الأول أو المائة، لا تعرف كيف بدأ يوم أو انتهى،

هو زمن مرضاة الربّ،
 عندما يبدأ الجنود الخدمة للترفيه عن أنفسهم،
 أو إظهار شجاعتهم،
 أو إرسال هدايا خطبة لحبيباتهم،
 أو احتواء خوفهم من الميّتّين،
 فينهمكون في جلد الأجساد،
 وفي تفاصيل عمق الضربة في اللحم الحيّ،
 وكل لحم حيّ في حدود الخدمة نجس.

هذه شريعة النجاسة،
 ويوم خدمتك، أيها الجنديّ، هو يوم طُهرتكَ.
 ستحمل إلى كاهنك،

عصفورين حيّين طاهرين،

ويد طفل بترتها،

وثدي امرأة مرضعة،

وخشباً من الحمضيات، ا

لتحرقها،

ومن ثم تمعسها جميعاً،

تحت سلسلة الدبابة.

ومن ثم، ستأتي بضربة في حيطان البيت،
 وستكون كل ضربة أعمق من الحائط،
 حتى يتقشّر الحائط عن البيت،
 ومن دخل البيت فهو عارٍ،
 وكل عارٍ نجس،
 فاجعل له سيلاً من لحمه أمامه: أبناءه.
 ومن ثمّ تأتي به مفلساً من العزاء،
 وجافاً من البكاء،
 وتلقي عليه قرعتين:
 قرعة للرّب، وقرعة لعزازيل.
 وستغشي فوقه البارود غطاء، فلا يموت،
 ثمّ تنضح دمه سبع مرات، فلا يموت،
 ثمّ تُخرجه بذنبه أنه حيٌّ، فيموت.

ففي اليوم الأول أو المائة، لا يمكنك أن تعرف كيف بدأ يوم أو انتهى،

خذ، أيها الجندي، أمام المجاميع،
 كلّ ذكر صحيح، واعصب عينيه، وعزّه،
 واضربه، وأطلق الكلاب عليه،
 ومن ثم ادفسه في العربة العسكرية،
 واحمله إلى السجن،
 اعزله ذنباً نجساً، أو وحشاً نجساً،
 وزدّه من الدامل، والجرب، والحكّة،
 واضربه، أو اشبهه، واخلع أظافره.

وكُلُّ واحد على شاكلته يصير.
 مجروحاً، مقطوعاً، أكلف، مرضوضاً،
 ذلك، لا تُقرّبه إلى الرّب، بل اجعله وقوداً للمذبح،

ولا تدنُّس اسم القدوس به،
فقد أمر اليوم بيومه، دون قرايين.

في اليوم الأول أو المائة، صعب أن تعرف كيف بدأ يوم أو انتهى،

أريها الجندي،
كلُّ كسر كسرتة اجعله كسرين،
وكلُّ عين فقأتها ضاعفها بأخرين،
ولا تجعل سلاماً في الأرض تحت قدم،
وألقي بكلِّ جثَّة فوق جثة أخرى، حتى تصير جبلاً،
لتكلم الربِّ من عليه،
حتى يشتمَّ رائحة سرورك، ويستوحش منها الميِّتون،
فلا تقوم لهم قيامة،
ويفنون، بذنوبهم يفنون،
وبذنوب آبائهم، في خيانتهم، يفنون،
أنهم لم يموتوا قبل اليوم،
قبل أن يبدأ الجنود الخدمة!

العدُّ

في السنة الثانية، يحاول الجنود أن يبدؤوا العدَّ من جديد،
والحساب الذي تعلَّموه مجرد أرقام، ومعادلات طرح دون جمع،
فما تعلَّموه عن الجمع أنه يأتي في صيغة الجثث،
والضرب من جانب واحد فقط، والنتيجة مضروبة في ألف ممَّا يُعدُّ.
ولا شيء يقبل القسمة في هذه البلاد، فالواحد لا يقبل القسمة،
وشعبه المختار، رقم واحد، لا يمكن تقسيمه إلا على نفسه.

أريها الجنود، إذا أردتم أن تشتكوا من كثرة الأرقام،
فاشتكوا سرّاً في أذني الربِّ، حتى تتمكنوا من التوقُّف عن العدِّ،

لا شيء يستحقُّ هنا عناءً رياضياً،
مارسوا رياضة القتل، رياضةً عقليةً وبدنيةً،
حتى تتيبس عضلاتكم، ولا تراحوا!

والأبسطُ، أن تفتحوا شهيتكم للطهي،
ولا مجال إلا أن تسألوا الربَّ أن يطعمكم لحماً.
وهنا، فوق هذه الأرض المحروقة، الكثير من اللحم!
يمكنكم الطحن، والدقُّ، والشواء، والتبخير،
حتى يُعجب الربُّ بكم، فيسألکم: أما من لحمٍ إضافيٍّ أعطيه لبقية شعبي؟

لكن ظلُّوا أمام الربِّ تبكون: أعطنا لحماً لناكل،
حتى يسألکم الربُّ سؤاله: أما شبعتم من الأكل؟
فيعطیکم الربُّ الذي دائماً ما أعطاکم،
لتظلُّوا تمارسون رياضة الأكل،
لا يوماً واحداً، ولا يومين، ولا خمسة أيام، أو شهراً، أو شهرين،
ستأكلون من لحوم أهل المدينة المحروقة حتى آخر الزمان،
حتى يخرج لحمهم من أنوفكم،
وإلى أن تفقدوا القدرة على العدا!

